يسلمني راتبه

كان يلتقط صورا للصغيرين وهما مشغولان بألعابهما حين دخلت الغرفة، وكنت قد سلّمتهما اليه بعد الحمام كي يلبسهما قرب المدفأة ويمشط شعريهما.. وجلست على الديوان المقابل أخلل أصابعي بشعري البليل كي يشكل حلقات طبيعية حين يجف.. والتقط لي دون أن أنتبه بضع صور وأنا أراقب سلام تمشط شعر دميتها بعناية واهتمام.. نزع الفيلم من آلة التصوير ووضعه في جيبه ثم قال ضاحكا وقد تذكر شيئا–احزري ماذا نسيت أن أفعل؟

وعبثا حاولت أن أحزر.. لأن فكري كان معلقا بما يمت للفلم بصلة.. وعندما سلمت بعجزي تناول من جيب سترته الداخلي مظروفا فانتفضت من مكاني فرحة وأنا أظن أنها رسالة من أهلي، ولكنني عرفت بأنه الراتب..

كان عفيف يسلمني راتبه الشهري بكامله بعد أن يخصم "مرافقه" المبلغ المخصص للمكتب، ثم يتناول مني خمس ليرات للحلاقة، ولا يسألني أبدا كيف أنفق وماذا أوفر.. وحين يحتاج الى مبلغ خلال الشهر يتلفن لي فأبعث اليه بما يطلب مع سائق سيارته، ولا أسأله طبعا فيم طلب أو أنفق، ولكنني أفهم أن المخصص للمكتب قصر عن الحاجة فيردفه بمبلغ من راتبه.. أو أن هناك من هو في ضيق وسأله حاجة فأراد عفيف أن يفرج عنه بعض ضيقه، أو ربما أراد أن يفاجئ الصغيرين بألعاب تفرحهما.. قال لي عمي في زيارته لي منذ أسبوع:

–لابد أنك وفرت حتى الآن مبلغا كبيرا، ثمن نصف بيت!..

وأسقط في يدي وانتابني غم ثقيل.. لماذا؟ انني لست مسرفة وبالرغم من هذا لا أدري لم لا أستطيع أن أوفر شيئا ذا بال..

فتحت خزانتي ونظرت الى ثيابي، لا، انني لست أنفق كثيرا على ثيابي، وغالبا ما أخيط بنفسي لي وللصغيرين، ونظرت الى الدفتر الذي أسجل فيه نفقاتي.. ليس هناك من شيء يمكن الإستغناء عنه حتى لو بدأت سياسة توفيرية.. لماذا؟ أحرام أن أجعل هذا الرجل الذي يجهد الليل والنهار ويتعرض للمخاطر يطمئن علينا؟ لم أكن أريد أكثر من بيت متواضع بأربع غرف، بيت يكون لنا،

فلا أبقى في ربقة المؤجرين.. ونظرت الى دفتري مرة أخرى.. لا يمكن لـــي أن أحقق هذه الأمنية ولو بقي عفيف عشر سنوات رئيس أركان!

بقيت أياما طويلة أشعر بهم يضيق به صدري.. لا أحب أن أنعت بالإسراف أو سوء الإدارة، ولكن ماذا أفعل وجيش جرار من الطفيليين يسرقونني؟

مجتمع مساوم وأنا لا أحسن المساومة، مجتمع لا يعيش فيه راغدا سوى من يحسن فن النهب.

من يصدق أن هذا السمان، ذا الحانوت الصغير في منعطف الـــشارع، هـــذا الرجل الأمي الذي تقتحمه العين بثيابه الرثة الملطخة ببقع الزيت قد بنى في شارع أبي رمانة بناية بطوابق ثلاثة..

اضطررت يوما لأرسل الفتاة التي تساعدني في أعمال البيت لتـــشتري لـــي ليمونا فأعجبته، هذا الشيخ المتصابي الذي غمره المال قال لها وهو يـــزن غلـــة النهار بالكيلوات "هل تتزوجينني؟ انني أربح أكثر من رئيس الجمهورية!"

كانت حاجاتي يشتريها لي الحرس.. أكتب قائمة لأحدهم فيأتيني بهـــا مـــن المحلات القريبة من الدار، وكانت الأسعار ترتفع يوما بعد يوم، وقد التهب السوق منذ سرت أنباء الحشود التركية، واختفت الحاجيات، ونشطت السوق الـــسوداء.. كان رأسي يدور وأنا أفكر كيف يعيش الناس في هذا الغلاء الفاحش.. قلت والغيظ يتملكني:

-لماذا لا تضعون حدّا لجشع تجار المواد الغذائية؟ انتهزوا الفرصة ليغتنوا..

-أعرف ذلك.. انهم كفرة لا يهمهم الاّ أن تنتفخ ســـراويلهم ولكننـــي لـــست الحكومة.. ان لدي مهماتي وواجباتي..

-الناس تنظر اليكم وكأنكم الحكومة.. يجب أن تتدخلوا وتفعلوا شيئا..

-ماذا بوسعنا أن نفعل؟ لا يمكن لرجل شريف في الحكم، ولا لعـــشرة، ولا لمائة، أن يغيروا شيئا في نظام فاسد.. ألا يكفينا ما نعاني في الجبهة الوطنية!

طافت بذهني كل تلك الأمور وأنا أعبث بالظرف، لست أدري كيف أجعلـــه يستلم عني تلك المهمة الثقيلة دون أن أجرح شعوره.

-هل اذا طلبت منك شيئا يا عفيف تجيبني الى طلبي؟

وبدا القلق في وجهه!

-ماذا؟ هل اعتدت مني أن أرفض لك طلبا؟

وأحسست بالخجل يغمرني وتملكني الإرتباك وقلت:

-ليس الأمر هاما.. كل ما هنالك أنني أرغب أن تستلم عني نفقات الشهر؟

-هل أنا متفرغ لهذا؟ قلت: "لو لشهر من الزمن ليكون لديك فكرة بما يعانيه الناس من الغلاء".. اصفر وجهه وقال:

-ليس هذا هو الأمر! ماذا جرى؟

وعبثا حاولت أن أنفي من ذهنه أنني أكتم أمرا ذا بال! لماذا يعقّد الأمور؟ ان الأذكياء مزعجون حقا في بعض الأحيان..

-انني أخجل من نفسي، وأشعر بأنني لا أحسن فن الإقتصاد.. وهـذا يجـثم ثقيلا على صدري..

نظر الي باستغراب وهو يستشف ما يدور في خلدي:

-يسرى! من يحاسبك، من يسألك اذا كنت مقتصدة أو مسرفة؟ لك عهد علي أن لا أخرج من رئاسة الأركان وقد وفّرت شيئا..

وأحسست بالدمع يترقرق في عيني برغمي..

-أعلم أنك لا تبالي، ولكن الأمر يزعجني.. أريد أن يكون لنا بيت، فلماذا لا أستطيع أن أوفر؟.. ضحك عفيف:

-أحلام برجوازية صغيرة.. من وضعها في رأسك؟

-لماذا؟ البيت حلم كل الناس.. اننا لا نسرق ولا نستثمر عرق أحد.. العمال في البلاد الإشتراكية يملكون البيوت!

-عندما يملك العمال في بلادي بيتا فانني مستعد أن أمتلك بيتا..

-عفيف، أحب أن تطمئن علينا، في هذه الأوضاع المتقلبة يفكـر الإنـسان بالأيام العصيبة.. هذا هو الأمر بالنسبة الي، وعمي أيضا يحب أن يطمئن علينا..

-فهمت.. ماذا قال عمك؟

-سألني ماذا وفّرت لأشتري بيتا!

-أنا زوجك، هل أسألك ماذا وفّرت؟

–ولكنني ألام.. لا أريد أن ألام ويحرج موقفي!..أنفق أنت.. انه مالك وأنت حر تفعل به ما تشاء..

–يسرى، ما هذا القول؟ ان حياتنا ليست شركة، هذا مالي وهذا مالك، لمـــن أتعب؟ في سبيل من أتعب ان لم يكن من أجلك؟ ان حياتنا وحدة.. كل ما أجنيه لك ولطفلينا، انني أخوض معركة هائلة من أجل مستقبلهما، ومستقبل كل أطفال البلـــد في أن يعيشوا في وطن حر يسوده الأمان والديموقراطية.. المال ما قيمته؟ ان لم نقض به حاجة أو نسعد به سوانا؟ لا كان المال، ولا كان التوفير!

–ولكن والدك على حق! انني أشتهي أن يكون لنا بيت..

–ان بيتنا في قلوب الناس يا حبيبتي!..

* * *